



إذا داهمتك الأحزانُ والخطوب، وكثُرت عليك المعاصي والذنوب، وعزَّ عليك المأمول والمطلوب - فانظر بين يدي مولاك، وأظهر له فاقتك وعجزك، واشكُ إليه حاجتك: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَيْتِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، إلى الله، لا إلى أحدٍ سواه!

إِنَّا أَرْهَقْنَاكَ هُمُومُ الْحَيَاةِ *** وَمَسَكَ مِنْهَا عَظِيمُ الضَّرَرِ
وَذُقْتَ الْأَمْرَيْنِ حَتَّى بَكَيْتَ *** وَضَجَّ فُؤُادُكَ حَتَّى انْفَجَرَ
وَسُدَّتْ بِوْجُوهِكِ كُلُّ الدُّرُوبِ *** وَأُوشِكَتْ تَسْقُطُ بَيْنَ الْحُفَرِ
فَيَمِّ إِلَى اللَّهِ فِي لَهْفَةٍ *** وَيُثَبَ الشَّكَاةَ لِرَبِّ الْيَسِرِ

فإذا فعلت ذلك سمع الله شكوكك، واستجاب دعاك، كما استجاب لمن سبقك من الأنبياء والصحابة والأخيار؛ فهذا أياوب - عليه السلام - يشكو حاله إلى ربه، فيقول: ﴿أَنِّي مَسَنِي الضرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83]؛ فسمع الله شكوكه، واستجاب دعاه، وكشف بلواه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٌّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلُهُمْ مَعْهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَ
لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 84].

وهذا يونس - عليه السلام - ينادي ربه ويُنَاجِيهُ، ويشكو إليه حاله، فينادي ﴿فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]؛ فسمع الله شكوكه، واستجاب دعاه، وكشف بلواه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَيَّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ
وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 88].

وهذا نبينا - عليه الصلاة والسلام - يشكو حاله إلى ربه، فينادي: ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلني؟ إلى بعيدٍ يتوجهُّنِي؟ أم إلى عدوٍ ملكه أمرى؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العُتْنَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)[1].

وهذا خَبِيب بن عَدِي حينما رفعوه على خشبة الصلب اشتكي حاله إلى ربه، فقال:

لَقَدْ جَمَعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَالْبُوَا *** قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعٍ
وَقَدْ جَمَعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ *** وَقُرِبَتْ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمْنَعٍ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُوْ غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتَايِ *** وَمَا أَرْصَدَ الْأَحْزَابُ بِي عِنْدَ مَصْرَعِي
فَهَا الْعَرْشُ صَبَرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي *** فَقَدْ بَضَعُوا لَهُمْ وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ *** يُبَارِكُ عَلَى أَوْصَالِ شَلُوْ مُمْزَعَ
لَعْمَرِي مَا أَحْفَلْ إِذَا مِتْ مُسْلِمًا *** عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ لِلَّهِ مَضْجُعِي[2]

وهذه امرأة ضعيفة تشكو زوجها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسمع الله شكواها، ويحل مشكلتها بآيات تتلى إلى يوم القيمة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتُكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1] الآيات.

وهذا الربيع بن خثيم يقول في شكواه: «اللهم أشكو إليك حاجة لا يحسن بثها إلا إليك، وأستغفر منها وأتوب إليك»[3].

أَصَدَّدْ أَنفَاسِي وَأَحْدُرْ عَبْرَتِي *** بِحَيْثُ يَرَى ذَاكَ الْإِلَهُ وَيَسْمَعُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُوْ لَا إِلَى النَّاسِ إِنَّمَا *** مَكَانُ الشَّكَايَا لَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

والله يحب أن يسمع عبده يشكو إليه، ويمقُّت منه أن يشكوه إلى خلقه، قال ابن القيم: «بل أراد منه أن يستكين له، ويتصدرع إليه، وهو - تعالى - يمقُّت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكى إليه ما ليس يخفي عليه، فقال: ربّي يرضى ذل العبد إليه»[4].

لَبِسْتُ ثُوبَ الرِّجا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا *** وَبِتُّ أَشْكُوْ إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ
وَقُلْتُ: يَا أَمْلَى فِي كُلِّ نَائِبَةِ *** وَمَنْ عَلَيْهِ لَكْشَفِ الضَّرِّ أَعْتَمِدُ
أَشْكُوْ إِلَيْكَ أَمْوَرًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا *** مَا لِي عَلَى حَمْلِهَا صَبَرُ وَلَا جَدُّ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بِالذَّلِّ مَبْهَلًا *** إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَدَّ إِلَيْهِ يَدُ
فَلَا تَرَدَّنَّاهَا يَا رَبُّ خَائِبَةَ *** فَبَحْرُ جُودِكَ يَرْوِي كُلَّ مَنْ يَرِدُ[5]

ومع شكوكك لربك، فلا بد لك من التحلي بالصبر الجميل، وهو الذي لا شكوى معه إلى الخلق، ولا تضجر ولا تسخط، وإنما تشكوك إلى الخالق الرحيم الرحمن القادر، لا إلى المخلوق الضعيف العاجز، الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً.

يقول أحد الشعراء الحكماء:

وَإِذَا عَرَكَ بَلِيهُ فَاصِبْ لَهَا *** صَبَرَ الْكَرِيمُ فَإِنَّهُ بَكَ أَعْلَمُ
وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الْذِي لَا يَرْحَمُ[6]

وهذا عمر يقول: «ما في الشكوى إلى الخلق إلا أن تُحزن صديفك، وتشمت عدوك»[7].

وقال الأحنف: «شكوت إلى عمّي في بطني فنهريني، ثم قال: يا ابن أخي لا تشك إلى أحدٍ ما نزل بك، فإنما الناس رجال، صديق تسوء به هذه الشكوى وشؤمه، وعدو تسرها»[8].

قد يَفْقُدُ الْمَرءُ بَيْنَ النَّاسِ عَزَّتُهُ *** إِذَا شَكَأَ أَمْرَهُ أَوْ سَبَ مِحْنَتَهُ
فَكُنْ كَيْثِ الشَّرَى مَا بَاعَ هَيْبَتَهُ *** وَلَا تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتَشْمَتَهُ

والشكوى لغير الله حمق وجهالة، قال ابن القيم: «الجاهل يشكوا الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكوا والمشكوا إليه، فإنه لو عَرَفَ ربه لما شكا، ولو عرف الناس لما شكا إليهم، ورأى بعض السلف رجلاً يشكوا إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوتَ من يرحمك.

وفي ذلك قيل:

وإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ.

والعارف إنما يشكوا إلى الله وحده وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس»[9].
وقال شيخ الإسلام: «وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو أن يرزقوه، أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك»[10].

إِنَّ الْوَقْفَ عَلَى الْأَبْوَابِ حَرْمَانُ *** وَالْعَجْزُ أَنْ يَرْجُوا إِلَّا إِنْسَانٌ
مَتَّى تَؤْمِلُ مَخْلُوقًا وَتَقْصِدُهُ *** إِنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالرَّحْمَنِ إِيمَانٌ
ثُقُّ بِالَّذِي هُوَ يُعْطِي ذَاهِنًا وَيَمْنَعُ ذَاهِنًا *** فِي كُلِّ يَوْمٍ لِهِ فِي خَلْقِهِ شَانٌ»[11]

ومع هذا كله فلا مانع من أن تبئث شكواك، وتبوح ب حاجتك إلى أصحاب المروءات، وذلك في الأمور الدنيوية المقدور عليها.

وَلَا بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مُرْوَةِ *** يُواسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعَ[12]!.

مع حسن توكلك، وقوة اعتمادك على خالقك ومولاك!
وأحياناً قد لا يجد الإنسان حلًّا إلا أن يبوح بشكواه إلى أهل الخبرة والاختصاص.

قال أحد الشعراء:

شَكْوَتُ وَمَا الشَّكْوَى لِنَفْسِي عَادَةُ *** وَلَكِنْ تَفِيضُ النَّفْسُ عَنْ امْتَلَائِهَا»[13].

وفقنا الله وإياك لطاعتِه، وأبعدا الله وإياك عن معصيته.

[1] رواه الطبراني في المعجم الكبير (13/73)، وحسنه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (7/267).

[2] انظر: المعجم الكبير للطبراني (5/259)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (1/507).

[3] صفة الصفوة لابن الجوزي (2/39).

[4] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين؛ ابن القيم، (36).

[5] موارد الظلمان؛ عبد العزيز السلمان (91-2/91).

[6] غذاء الأنابيب في شرح منظومة الآداب؛ السفاريني (1/456).

[7] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء؛ الأصفهاني (524).

[8] وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان؛ ابن خلكان (2/505).

[9] الفوائد، ابن القيم، ص (87).

[10] العبودية، ابن تيمية، ص (87).

[11] الآداب الشرعية والمنج المرعية، ابن مقلح (3/280).

[12] نظم العقيان في أعيان الأعيان، السيوطي، (67).

[13] الجليس الصالح الكافي والأئم الناصح الشافعي، أبو الفرج النهرواني، ص (555).

صيد الفوائد

المصادر: